

هشام البساط

## تاريخ النقود في نهاية العصر العباسي خلال فترة بدر الدين لولو

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠). ١٩٢ ص.

صباح ياسين(\*)

باحث وإعلامي عراقي.

### - ٢ -

مما يؤسف له أن المكتبة العربية لا تحوي إلا القليل من المخطوطات والكتب، والمعلومات المتناثرة في ثناياها بشأن عمليات سك وإصدار النقود في مرحلة ولادة الدولة العربية واتساع نفوذها وتوسع سلطتها. ولذا، فإن كتاب تاريخ النقود في نهاية العصر العباسي خلال فترة بدر الدين لولو يقدم مساهمة فكرية وبحثية جادة في الإحاطة بهذا الموضوع من جوانبه المختلفة، وعبر تفعيل البحث في المضمون التاريخي لحركة السياسة والاقتصاد معاً. وفي ذلك الإطار، يكشف الكتاب عن مرحلة قلق وحرجة من الزمن الأخير في حياة الدولة العربية العباسية وهي تعاني الضعف والتدخلات الخارجية، وعلى أسوارها سحب من التهديد والأطماع، ممثلة في تقدم جيش منكو الذي دخل

### - ١ -

وجب القول بداية، إن امتزاج فكرة التأريخ مع صناعة المال يوجب الحذر من إقحام غير مبرر، ولا يقدم جواباً عما يُعرف أنه تواصل بين غاية الإنسان للسلطة والنفوذ، والمنطق الذي يفضي إلى تمكّن السوق من فرض قوانينه؛ تلك القوانين التي تبدأ من تدرج قطعة ذهبية أو فضية من أتون الحداد، فترفع عروشاً أو تخفي أخرى.

ولذا، فإن البحث في تاريخ سك النقود وإصدارها وتداولها، في مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني، غير ممكن بمعزل عن الأحداث والوقائع السياسية والصراعات على المصالح والنفوذ، وحين تسجّل في ثناياها قصص وتحولات تبقى شاهداً على قدرة الإنسان على البقاء والمواصلة.

### - ٣ -

لذلك، كانت قطعة ذهبية متدحرجة من زمن إمارة بدر الدين لولو إلى يد د. البساط، الهاوي والمحترف باقتناء ودراسة النقود العربية وتاريخها وتطورها، حافزاً لدراسة تاريخ تلك الإمارة والسلوك السياسي لحاكمها، وعلاقاته الخارجية والداخلية: «طالعني على هذه القطعة النقدية القديمة نقش لاسم غير مألوف بالنسبة إلي، وهو - بدر الدين لولو - لجأت عند ذلك إلى المصادر التاريخية، وفوجئت بأن لولو هو شخصية سياسية مثيرة للجدل والغربة، فقد انتقل خلال نصف قرن تقريباً من حال مملوك إلى سلطة ملك».

وفي الواقع، فإن ذلك المملوك الذي يرد اسمه في أكثر من كتاب عن تاريخ الدولة العباسية، والذي حقق استقراراً سياسياً لولايتيه وتوازناً في علاقته بجيرانه، قد تميز بالتوجه نحو العلم والعلماء، وبناء دور العلم والعبادة. ويكفي أن نذكر له، نموذجاً، وهو عمله المعروف بنسخ كتاب **الأغاني** لأبي فرج الأصفهاني، الذي زينت أجزاءه بالصور الملونة، أشهرها الصور الشخصية للحاكم لولو مع اسمه. هذا علاوة على أنه تميز باهتمامه بسك النقود وما عليها من رسوم وزخارف، وعلى اختلاف أنواعها وأوزانها.

### - ٤ -

يذكر د. فالح حسين في كتابه **بحث في نشأة الدولة الإسلامية** أن ضرب النقد هو من المؤشرات الرئيسية لوجود سلطة الدولة، التي تتولى ضرب النقد وتحديد قيمته من خلال الإشراف الرسمي على ما

عاصمة الخلافة ودمر كيائها وحضارتها في عام ١٢٥٨ م، فكان السيف والذهب يفتحان طريقاً غير مسار التأريخ العربي، وأفضى إلى غياب شمس الحضارة العربية في المشرق، ودخول الأمة العربية في غيبوبة استمرت أكثر من خمسة قرون.

ولم يكن غريباً أن يرتبط البحث التاريخي بالاقتصادي في التعريف بمعالم الدولة العربية والمشاكل التي تعانيها، وفي متابعة العلائق الاقتصادية المعبرة عن وجوه السيادة والقوة على الأمصار، واستجلاب الولاء والخراج معاً، وهو ما خاض في غماره البحثي د. هشام البساط، لا كهواي اقتناء النقود العربية القديمة، بل كباحث في ثنايا تلك الموضوعات في كل جوانبها، وبشكل خاص عندما اختار فترة احتضار الدولة العربية العباسية وعلاقتها بولاية الموصل في شمال العراق، التي كانت تحت حكم شبه مستقل، وفي فترة حكم بدر الدين لولو، وهو ما يوضحه المؤلف بقوله: «ولقد استطعت من خلال دراسة نقود لولو، أن أخط طرقه المتقاطعة والمتناقضة، خريطة لزمن تحولات كبيرة اجتاز لولو براعة مفازاتها الخطرة، معاصراً في سنيه الثمانين نهاية الخلافة العباسية التي دامت أكثر من خمسة قرون أمام غزو المغول والتحول التاريخي الكبير لمواقع السلطة وللتأريخ السياسي في الشرق».

إن، نحن أمام تأريخ سياسي وتحولات اقتصادية واجتماعية، تتشكل فيها صنعة إصدار النقود وتداولها، خارطة وشاهداً لتقاطعات الصراع على الحكم، وتعبيراً عن طموحات قد تتحقق بقوة السيف أو برنين الذهب.

١٢٥٨م) وكأنه يقدم إلى المغول رسالة الولاء والطاعة الكاملة.

عملياً، استطاع المؤلف أن يحقق الصلة التاريخية بين الأحداث الكبيرة والتحولات الحاسمة والمصالح المادية، وتابع تطور قطعة النقود كوثيقة تاريخية، تسرد وقائع تلك الفترة. كما أن المؤلف حقق سيرة الحاكم وتحركاته السياسية، وصلاته الاقتصادية، من خلال ما حملته نقوش النقود من كتابات وتوثيق للتأريخ، وأسهم أيضاً في رسم الخارطة السياسية لمدينة الجزيرة وشمال العراق، والعلاقات المتنبة مع مركز الحكم في بغداد.

## - ٥ -

يقدم الكتاب، بالإضافة إلى متابعة تعريب النقود في أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، الذي يسجل أنه أول من ضرب الدينار الإسلامي عام ٧٧هـ، المتغيرات التي حصلت في مراحل وهن الدولة العباسية وبداية انهيارها؛ إذ أصبح سك النقود الذهبية خارج صلاحيات الدولة المركزية في بغداد، وغير خاضع لسياستها. وعندها أخذت بعض الولايات الإسلامية تضرب نقودها الخاصة بها، ولكنها استمرت في المحافظة على ذكر اسم الخليفة العباسي مع ذكر اسم الحاكم المحلي ولقبه على نقودها، بل يذكر المؤرخ د. عبد العزيز الدوري في الجزء الثالث من كتابه **أوراق في التاريخ والحضارة**، أن الثورة العباسية في خراسان قامت خلال مرحلة الدعوة لها بضرب النقود في عام ١٢٨ - ١٢٩هـ<sup>(١)</sup>،

صار يُسمى عند العرب في ما بعد «دار الضرب» أو «العيار». وقد حصل ذلك أيضاً إبان إنشاء الديوان الذي ارتبط بتنظيم الضرائب والأرض، أي في عام ٢٠هـ تقريباً، مع وجود إشارات متفرقة قبل ذلك التاريخ بقليل، وبالتحديد في عام ١٨ هـ/ ٦٣٩م. لذا، فإن الدولة وسيادتها، ليس في عهد بدر الدين لولو فقط، وإنما في عهود سواه أيضاً، هما في امتلاك القوة، حيث ظهر اسمه على قطع النقود التي تدور بين الناس وفي الأسواق، مع حرصه الشديد، كما يذكر د. البساط، على أن يذكر اسم الخليفة العباسي المستنصر والمعتصم طوال فترة حكمه الموصل حتى سقوط بغداد. ويورد المؤلف أن بدر الدين لولو ذكر على نقوده الذهبية والفضية والنحاسية أسماء حلفائه الذين تعامل معهم: من الأيوبيين إلى سلاجقة الروم ثم المغول. وفي هذا السياق، تعكس رواية ضرب النقود طبيعة الصراعات والتحالفات التي كانت تسود تلك الحقبة، فكان وجه العملة رسالة ولاء أو تحالف لاتقاء شر طامع بالعرش.

ولا غرابة أن تتوسع الغاية من ضرب العملة إلى تمجيد مختلف أدوار بدر الدين لولو؛ فهو في مرحلة أولى مجرد اسم (بدر الدين لولو)، وفي مرحلة أخرى «الملك الرحيم بدر الدين سلطان الإسلام أبو الفضائل»، ثم «لولو بدر الدنيا والدين أتابك»، أو يضع بصمته على العمل ولكن بلغة مغولية (منكو .. قآن الأعظم، خداوند عالم بادشاه روي زمين زیدت عظمته)، وهي من قطع النقود التي ضربت في الموصل بعد سقوط بغداد (٦٥٦هـ/

(١) عبد العزيز الدوري، **أوراق في التاريخ والحضارة**، ٤ ج (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٧)، =

المجموعة النادرة من القطع الذهبية والفضية والنحاسية، مرحلة بالغة الأهمية من تأريخ الدويلات العربية والإسلامية خلال فترة حكم بدر الدين لولو لولاية الموصل، فجاء الكتاب مزيجاً من التاريخ والسياسة والاقتصاد، مع توثيق لصناعة سك النقود، ومعها حرفة الصياغة والخط والنقش، وذكر أسماء الحكام وألقابهم، فكان وجه القطعة النقدية يشي بأحداث ومناسبات، بالإضافة إلى ما ستأتي به الأيام من تبدل الأحوال، في انهيار الدول أو قيام غيرها.

وباختصار، فإن المؤلف يستعيد نقاشاً قديماً في العلاقة بين صناعة السياسة وصناعة سك النقود، إلا أنه في كل الأحوال يوضح ذلك بميزان الذهب الرنان، الذي يفتح مغاليق الأسوار المحصنة، ويشيد الحواضر والأمجاد، ولكنه يسهم أيضاً في إشعال الحرائق والفتن.

ولكن لماذا هذه الدراسة عن بدر الدين لولو بالذات، وفي تلك الفترة تحديداً؟ وتأتي الإجابة من المقدمة التي يشير فيها المؤلف إلى شغفه بدراسة شخصية ذلك الحاكم من خلال دراسة نقوده، التي شكلت حالة فريدة في التأريخ العربي، وإلى أنه شخصياً يجمع في ذلك الكتاب بين الهوية والمعرفة التاريخية □

وذلك قبل ظهور أبو مسلم الخرساني. كما تم ضرب النقود في الري واصطخر ورامهرمز والتميمرة، وبذلك أصبحت النقود دلالة الدولة والثورة معاً.

وبعد احتلال المغول بغداد، قدم بدر الدين لولو الولاء والطاعة لمركز الحكم الجديد. وقد سجل المؤلف، بالإضافة إلى فترة حكم لولو في فترة الخلافة العباسية، تلك النقود الذهبية والفضية والنحاسية التي حملت اسم الحاكم المغولي (منكو قآن الأعظم)، وتابع ابنه الصالح إسماعيل ضرب الدينار ووسمه باسم «الملك الصالح إسماعيل ركن الدنيا والدين»، وعلى الوجه الآخر لقب «منكو قآن الأعظم، ملك رقاب الأمم». وبعد انتصار المماليك بقيادة الملك الظاهر بيبرس على المغول في معركة عين جالوت، وطردهم من سورية، ضرب إسماعيل درهماً جديداً باسم الخليفة العباسي الجديد في مصر المستنصر بالله، مع ذكر اسم الظاهر بيبرس، متفائلاً بقوة المماليك وتساعد قوتهم ونفوذهم، ومتحدياً هولاكو.

ولعل تلك النقود كانت بيانات رسمية لتحديد الاتجاهات والمصالح الاقتصادية وفق الظروف ومقتضى الحال.

## - ٦ -

وهكذا، عرض المؤلف أيضاً، ضمن